الفصل الثالث

قيادة المجتمع الاسـلامى

● عند النصر يذكر المؤمن : الله .. ويراجع نفسه ــ من الهزيمة تستخلص عوامل النصر ــ ارتداد الضعفاء لا يحزن القيادة الرشيدة ــ التبصير بالسلوك الانسانى ضرورة اجتماعية ــ التنبيه المستمر الى تلافى الانحرافات ، يحفظ على المجتمع تماسكه ــ بقاء المجتمع فى استقامة أفراده ــ الشورى ضرورة اجتماعية ــ حكمة التوجيه قد تقضى بالوعد بالنصر مسبقا ــ النفاق والقيادة الرشيدة للمجتمع ــ المنافقون يكشفون عن أنفسهم ..

● عند النصر يذكر المؤمن : الله .. ويراجع نفسه :

نشوة النصر فى مجال ما ، قد تجر المنتصر إلى الغرور .. فالطغيـان . فقد ينسى المنتصر عوامل النصر التى ساهمت فيه ، ويكون على ذكر فقط لواحد من بينها ، هو ذاته . وعندئذ يركز المنتصر على الذات ، ويبرز أهميتها فى النصر . وربما يغفل رويداً ، رويدا : العوامل الرئيسية التى حملت فى الحقيقة لواء النصر : من الإيمان بالله إلى درجة حب الاستشهاد فى سـبيله .. ومفاجأة العدو بالقتال ، فى اللحظة التى يكون مطمئنا فيها إلى استبعاد القتال .. وحسن التدريب على القتال ، وحكمة القيادة فيه .. وحسن التأنى فى إحكام التدبير للقاء .. وغير ذلك من العوامل الجانبية الأخرى .

وإذا انتهى أمر النصر إلى إبراز ذات المنتصر وحدها ، وإغفال العوامل الرئيسية فيه سار الأمر إلى طريق الهزيمة عند اللقاء المقبل للعدو ، إن وقع قتال .. أو إلى طريق الفشل فى تدبير الشئون الداخلية للأمة ، وسـياسة توجيهها . لأن العامل الشخصى — وهو ذكر ذات المنتصر وحدها — عامل مبغض ومفرق ، وعند التباغض والفرقة يسـود الضـعف ويذهب التجمع للأفراد حول هدف واحد ، فوق مصالحهم الشخصية والفردية .

ومن أجل ذلك يدعو القرآن الكريم المؤمنين عند انتصارهم على أعدائهم أن يتذكروا مساندة الله لهم فى النصر . إذ قد رفع إيمانهم إلى درجة عليا هى درجة الاستشهاد فى سبيل المبـادىء ، وليس فى السعى لتحقيق المنـافع الشخصية ، وألهمهم الصبر والتحمل ، وربط بين قلوبهم جميعا صفا واحدا ، وراء هدف واحد ترتبط به مصالحهم جميعا ، ومع ذلك ليس لمصـلحة مجموعة دون أخرى . وهو هدف الوجود الحر للمؤمن الذى يمارس فيه إيمانه بحرية تامة ، كما دخله حراً غير مكره وغير ملزم من آخرين به ، حتى من الله ذاته ((**لا اكراه فى الدين**)) (١) ..

---

(١) البقرة : ٢٥٦

يقول الله تعالى : ((**اذا جاء نصر الله والفتح .** (أى إذا جاء نصر الله فى ميدان القتال .. وجاء فتحه للقلوب التى كانت مغلقة دون الإيمان بالله وحده) **ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .** (لأنه لم يعد هناك إرهاب من عدو متربص بالإيمان ، ولا صاد عنيف عن دينه ، ولا مادى يسخر ، ويعتز بالحياة الدنيوية وحدها .. كذلك لم يعد هناك طمس للحقائق ولا تشويه للمبادىء ، وإنما الاقتناع برسالة الله أخذ طريقه سهلا نحو القلوب التى لا يعوقها عائق الآن : من خوف ، أو قلق على المستقبل) **فسبح بحمد ربك**)) (٢) . (أى عندما يحل النصر على الأعداء وتزول العقبات من طريق القلوب ، فيجب على المؤمنين ــ والرسول عليه الصلاة والسلام فى مقدمتهم ــ أن يعلنوا ثناءهم على الله ، وأن يذكروه فى فرحهم بنصرهم ، كما ذكرهم هو فى شدتهم فى القتال ، وفى أزماتهم عند التحدى لهم ، بسبب إيمانهم به وحده) .

وفى ذكر الله عند النصر ضمان لعدم مبالغة الإنسان فى ذكر نفسه .. فى هذه المناسبة .. وبالتالى ضمان إلى عدم طغيانه . وبذلك يبقى الإنسان فى نطاق الاعتدال ، إن اعتز بنفسه ، بجانب حمده لله وذكره إياه بالخضوع والطاعة له . على أنه قد يترقب من الإنسان : كلما ذكر الله وأثنى عليه ، كلما ضؤل شخصه أو ذهب فى ذات المولى سبحانه ، فلا يرى فى الوجود إلا الله وحده . وعندئذ لا تخدعه الدنيا ولا تغريه بحال . وفى ذلك سلامة للعوامل التى دفعت إلى نصر المؤمنين على أعدائهم ، وبقاؤها قوية ذات فعالية .

كما يدعو القرآن عند النصر ــ بجانب ذكر الله ــ إلى مراجعة المؤمنين أنفسهم حين القتال السابق : هل كانوا على مستوى الإيمان المطلوب ؟ . . هل تجردوا تماماً عن الأغراض الدنيوية عند لقائهم أعداءهم ؟ هل لم يباشروا خطأ ، ولو فى التصور النفسى ينقص فى درجة إيمانهم ، وبالتالى فى جزاء الله لهم ، وفى تقبله جهادهم فى سبيل الله تقبلا حسنا ؟ يقول سبحانه استمراراً فى سورة النصر : ((**واستغفره ، انه كان توابا**)) (٣) ..

---

(٢) النصر : ١ ــ ٣ (٣) النصر : ٣

(والخطاب الآن موجه إلى الرسول الأمى محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله وسلامه . ويطلب إليه كما يطلب إلى المؤمنين ــ عند خروجهم منتصرين من قتال مع أعدائهم ــ أن يراجع نفسه ، ويراجعوا هم أنفسهم أثناء القتال السابق . فإن كانت قد دخلت نفوسهم ميول نحو الدنيا ، عند الذهاب إلى القتال ، أو فى أثنائه ، أو بعد النصر على الأعداء ، فليطلبوا من الله المغفرة ، ومن صفاته سبحانه : أن يغفر للمؤمنين به زلاتهم ، كلما أخطأوا وعادوا إليه مستغفرين) .

وطلب المغفرة هنا قصد به وقاية المؤمن مستقبلا من دفع الميول النفسية له نحو السعى ــ بعد النصر ــ إلى تحصيل الدنيا ، وخفة وزن ذكر الله فى نفسه بجانب ذلك .

إن النصر مستمر للمؤمن ، إن ذكر الله بعد نصره .. وإن الهزيمة آتية لا محالة لمن يغتر بنصره ، ويطغى به . ذكر الله وقاية من الهزيمة ، وضمان للنصر على الذات ، وعلى الأعداء معاً .

* * *

● **من الهزيمة تستخلص عوامل النصر :**

فى نداء الله للمؤمنين ــ بعد هزيمتهم فى « أحد » ــ فى قوله تعالى : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون** » (٤) .. ما يحيى فيهم الأمل من جديد بكيانهم ومستقبلهم كأمة لها شأنها فيما بعد . ففى ندائه لهم هنا يطلب إليهم : ألا يقبلوا الإهانة فى صورة ما ، فى مواجهة أعدائهم الأقوياء ، بسبب هزيمتهم فى قتال « أحد » .. كما يطلب إليهم ألا يتركوا الحزن على تلك الهزيمة يشق طريقه إلى نفوسهم ، ويصدهم عن طريق الانطلاق فى دعوتهم والأمل فى نجاحها . ويبنى نداءه على أن الإيمان بالله أرفع مستوى من الكفر به .. وأن المؤمنين أعلى وأرقى نوعاً من أولئكم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً . فهؤلاء فى ضلال وفى حيرة وفى قلق نفسى دائماً . لأنهم لا يسعون إلا إلى متع الدنيا وحدها ، ومع

(٤) آل عمران : ١٣٩

ذلك لا يضمنون تحصيلها ، وإن حصلوها لا يضمنون ألا تفلت من أيديهم فكيف إذن يترك المؤمن نفسه للإحساس بالإهانة والمذلة وبالحزن على خسارته فى جولة من جولاته مع عدوه ، كما يؤسس القرآن ما يطلبه الله هنا من المؤمن وما يتوقعه من تنفيذه منه فى حياته النفسية : على صدقه فى الإيمان بالله : « **إن كنتم مؤمنين** » (٥) ..

ثم يوضح الله جل جلاله للمؤمنين : أن هزيمتهم فى « أحد » .. لا تحمل إطلاقا معنى الإهانة لهم .. وبالتالى لا تدعوهم إلى الاسترسال فى الحزن على ما وقع فيها . لأن المبدأ السائد فى الحياة ــ وهو قانون من قوانينها ــ أن ليس هناك طرف منتصر دائماً .. وليس هناك لذلك طرف منهزم دائما وإنما الأسباب التى تدعو إلى النصر .. والأسباب الأخرى التى تدعو إلى الهزيمة هى أسباب متبادلة بين الطرفين ، ومتبادلة بين الناس جميعاً : « **وتلك الأيام نداولها بين الناس** » (٦) .. وما نزل بكم من خسارة فى « أحد » قد نزل مثلها بالأمس فى « بدر » فى جانب أعدائكم . « **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** » (٧) ..

والهزيمة للجماعة المؤمنة فى قتال مع عدوها رغم أنه على باطل ، وأنها هى على حق وتدعو للحق وحده . ضرورة لابد أن تقع لها يوماً ما فى حياة الجيل منها . إذ من غير الهزيمة لا يقف المؤمنون عمليا على نقاط ضعفهم كبشر ، فى لقائهم مع أعدائهم .. ومن غير الهزيمة لا يعلم المؤمنين أنفسهم : كيف انتصر أعداؤهم عليهم ، لأسباب ترجع إلى ذواتهم هم ، وليس لذوات الأعداء فإذا عرفت أسباب الضعف كان تجنبها فى المستقبل هو : العامل الحاسم فى نصر المؤمنين من جانب ، وفى الوقت نفسه لهزيمة الأعداء الكافرين من جانب آخر : « **وليمحص الله الذين آمنوا** (أى كانت هزيمة « أحد » ليميز الله المؤمنين حقا من المنافقين بينهم الذين يقفون عند إعلان الإيمان فقط ، كسبا للدنيا ، أو خداعاً للصادقين فى إيمانهم) **ويمحق الكافرين** » (٨) .. (وفى الوقت نفسه تعرف من هزيمة المؤمنين : كيف تكون الإطاحة والمحو للأعداء الكافرين فى اللقاءات المقبلة معهم) .

---

(٥) آل عمران : ١٣٩
(٦) آل عمران : ١٤٠
(٧) آل عمران : ١٤٠
(٨) آل عمران : ١٤١

وتمحيص الله للمؤمنين بين الصـــادق منهم والمريب ، هو تمحيص علنى وعمل أمام الرسول عليه السلام ، وأمام المؤمنين جميعا . إذ الله يعلم حقيقة المؤمن ، من المنافق . وهو من أجل ذلك ليس علمه فى حاجة إلى تجربة يهزم فيها المؤمنون بسبب المنافقين فى إيمانهم بينهـــم . وإنمـــا التمحيص كشف لأصحاب النوايا السيئة الذين دخلوا الإيمان رغبة فى دنيا ، من وراء إعلان الإيمان : « **وليعلم الله الذين آمنوا** (أى كانت الهزيمة ليعرض لكم : ما يعلمه الله من المؤمنين الصـــادقين) **ويتخذ منكم شهداء** » (٩) .. (ثم من جانب آخر ليعرفكم بأن أصحاب الإيمان القوى الذين يقاتلون فى سبيل الله صدقا وعدلا ، هم شهداء عنده ، ولهم جزاء الشهداء فى الآخرة) .

والكشف العلنى فى تجربة القتال الصادق فى الإيمان ، والمنافق فيـــه : تنقية عملية وتمييز للمؤمنين الصادقين وحدهم . وعندئذ إذا اشتبكوا من جديد كان النصر لهم والمحق لأعدائهم . إذ الله الآن معهـــم . لأنه لا يحب الظـــالمين « **والله لا يحب الظالمين** » (١٠) .. والظالمون هم أولئكم المعتدون على القيم العليا فى حياة الناس .. هم الأنانيون .. هم المشركون الماديون .. هم الكافرون .. ورسالة الله هى رسالة القيم العليا . والله جل جلاله عزيز لا يغلب ، ولا يقهر ، على رسالته للإنسان . فلا تصادر رسالته إطلاقا ، وإن ضعفت فى الأرض ، فلأجل معلوم .

وقد سجل القرآن وضع المؤمنين بعد هذا التمحيص والتنقية فى قوله :

« **يستبشرون بنعمة من الله وفضـــل وان الله لا يضـــيع اجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح ، للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشـــوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم ســـوء واتبعوا رضـــوان الله ، والله ذو فضـــل عظيم . انما ذلكم الشيطان** (يوم أحـــد) **يخوف أولياءه** (وهم المنافقـــون) **فلا تخافـــوهم وخافون ان كنتم مؤمنين** » (١١) ..

* * *

(٩) آل عمران : ١٤٠
(١٠) آل عمران : ١٤٠
(١١) آل عمران : ١٧١ ــ ١٧٥

● **ارتداد الضعفاء لا يحزن القيادة الرشيدة :**

الضـعفاء فى المجتمع هم المنافقون .. وهم الانتهازيون . وهم مع ذلك يحـــذرون أن ينكشف أمرهـم : « **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم** » (١٢) .. وعند الأزمات والشدائد يحاولون التخلص من أداء الواجب : « **وإذا ما أنزلت سورة** (أى فيهـا وجوب القتـال) **نظر بعضـــهم الى بعض هـــل يراكم من أحـــــد ثم انصرفوا** » (١٣) .. ويتسترون وراء الحلف بالأيمـان : « **يحلفــون بالله لكم ليرضـوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين** » (١٤) ..

وإذا تعرضـوا لعمـل عام بالنقـد فمن زاوية مصـلحتهم الخاصـة . « **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منهـا اذا هم يسخطون** » (١٥) وهم يمارسـون العهود الكاذبة : « **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون** » (١٦) ..

وهؤلاء المنافقون ــ أو الضعفاء ــ مجموعة فى كل مجتمع . وهنـاك مجموعتان أخريان معها فى المجتمع كذلك : مجموعة المؤمنين بمبادىء المجتمع وبقيمه العليا ، وهى التى تسانده فى الشدة والرخاء بالأمـوال والأنفس . ومجموعة المعارضين الصرحاء فى معارضتهم . ومجموعة المنافقين أخطر بكثير من مجموعة المعارضين المكشوفين : على المجتمع ، وعلى قيمه ومبادئه : إذ أنها لا تهتم بالقيم والمبادىء ذاتها فى المجتمع فهى تعيش فى كل مجتمع : إن انتهى مجتمع تسارع فى أن تكون صاحبة المنفعـة فى المجتمع الجـديد . وأسلوبها فى التستر وراء سرعة إعلان الولاء والإيمان بأهداف المجتمع الجديد يتيح لها الفرصة فى أن تتقدم فى النفعية وفى أن توائم نفسـها مع القيادة الجديدة . مع أنها ربما تكون مبغضة فى واقع الأمر لهذه القيادة . « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون** » (١٧) .. (أى الخارجون فى حقيقة أمرهم خروجا واضحا عن مبادىء المجتمع) .

---

(١٢) التوبة : ٦٤ — (١٣) التوبة : ١٢٧
(١٤) التوبة : ٦٢ — (١٥) التوبة : ٥٨
(١٦) التوبة : ٧٥ ، ٧٦ — (١٧) التوبة : ٦٧

.. والقرآن ينصح القيادة الرشيدة للمجتمع أولا : بألا يضيق صدور المباشرين لها عندما يتردد هؤلاء المنافقون بولائهم بين المجموعتين الأخريين : مرة إلى هذه المجموعة .. وأخرى إلى تلك المجموعة المقابلة : « **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم** » (١٨) .. وينصح بذلك فى وقت لم تكن فيه الأمة من القوة فى وضع يمكنها من مواجهة الأعداء فى الخارج ، وأخذ هؤلاء النفعيين الضعفاء فى الداخل بما يسد عليهم هذا الطريق الرخيص ، اللاإنسانى للمنفعة الشخصية .

وإذ يوصى القرآن فى هذا الوقت بعدم الحزن وبعدم ضيق الصدر لتصرف هؤلاء المنافقين أو الضعفاء ، فلكى تستمر القيادة فى البناء فى طريق القوة والمنعة ، وفى التغلب على الصعاب الأخرى المادية أو النفسية التى تواجهها فى هذا البناء .

فإذا اشتدت الأمة وقويت فعلى القيادة أن تواجه هؤلاء المنافقين عندئذ بتقليل خطرهم وتضييق فرص النجاح أمام النفاق فى المجتمع : « **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** » (١٩) .. فهم الآن مساوقون للمعارضين الصرحاء . كما لا ينبغى أن تخدع القيادة بأساليبهم وبما يملكون من إمكانيات من الأموال والعصبيات : « **ولا تعجبك أموالهم** » (٢٠) .. ويجب أن تعتبرهم فى عداد المعارضين الخطرين . إذ هم فى الواقع كذلك : « **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** » (٢١) ..

وأسلوب القرآن فى نصح قيادة المجتمع باتخاذ هذه المواقف المتدرجة من الضعفاء فى الأمة ، وهم المنافقون : من عدم ضيق الصدر .. إلى المواجهة .. إلى اعتبارهم خارجين : إنما يقيم نصحه على جوانب نفسية تصور الواقع الذى يجب أن تبنى عليه سياسة التوجيه ، إذا أريد أن يكون هناك نجاح للقيادة فى المجتمع ، وأن يكون بناؤه بناء متماسكا .

* * *

---

(١٨) المائدة : ٤١ — (١٩) التوبة : ٧٣
(٢٠) التوبة : ٨٥ — (٢١) التوبة : ٨٤

● **التبصير بالسلوك الانسانى ضرورة اجتماعية :**

تأخذ الدعوة لمباشرة الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فى المجتمع الإسلامى ــ فى نظر الإسلام ــ منزلة الضرورة والواجب .

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : هى دعوة إلى بناء الروابط بين الأفراد على أساس من المستوى الإنسانى الذى تتحقق عن طريقه : الطمأنينة ، ويتحقق السلام فى النفوس بين الأفراد . فالمعروف كل ما هو بناء نافع من التعاون المادى والأدبى ، وتجنب المنكر هو تجنب كل ما يؤذى العلاقات ، ويدفع إلى الخصومات والحزازات ، وكل ما هو اعتداء على حرمات الإنسان فى ماله ، ونفسه ، وعرضه . أما الخير فهو توصيل المنفعة إلى الآخرين ، فى غير مبادلة ، وفى غير منة عليهم .

وهذه الدعوة تأخذ منزلة الضرورة والواجب فى المجتمع الإسلامى . لأنها تذكير متواصل بما ينبغى أن تكون عليه العلاقات . وإذا أخذ من مفهوم قول الله تعالى : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » (٢٢) .. أن وجوبها هو على سبيل الكفاية فهو واجب على أية حال تأثم الأمة جميعها ، إذا لم تأخذ هذه الدعوة طريقها بين الأفراد فيها ، من مجموعة بينها .

ويربط القرآن هنا بين الفلاح للأمة من جانب ومباشرة هذه الدعوة من جانب آخر ، مما يجعل أن من أسباب عدم نجاح الأمة فى بنائها ، وفى تماسكها ، وفى مواجهتها لأعدائها : هو إهمالها للدعوة فيها إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وإذ يعبر القرآن هنا بقوله : « **ولتكن منكم أمة** » .. أى جماعة ... مما يفيد أن قيام هذه الجماعة فى مجتمع المسلمين أمر حيوى يستدعيه الهدف من الدعوة ذاتها : فهو يترك أمر قيامها والمشاركين فى رسالتها ، وكيفية الأداء لها إلى المجتمع ذاته . شأنها شأن تحقيق : « **الشورى** » فى قوله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** » (٢٣) .. والفلاح المستهدف من هذه الدعوة ، كما تعبر الآية : « **وأولئك هم المفلحون** » ..

---

(٢٢) آل عمران : ١٠٤ — (٢٣) الشورى : ٣٨

إن تحقق ، دل تحققه على أن أسلوب الدعوة أو نظامها الذى ارتضاه المجتمع هو نظام سليم يوصل إلى غايته .

وعلى أية حال لا ينبغى أن تكون هذه الجماعة الداعية إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فى انفصالية أو فى عزلة . وإنما المشاركون فيها هم أفراد تختلف وظائفهم أو مهامهم فى المجتمع ، كل حسب طاقته وما أعد هو من أجله . فالإسلام لا يعرف فصلا بين دين ودنيا ، وإنما يعرف مسلمين فقط ، كل موجه إلى ما يستطيع مباشرته من عمل سياسى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى ، أو عسكرى ، أو ثقافى .

وربما هناك صلة وثيقة بين طلب القرآن الكريم لقيام هذه الجماعة ــ بعد الرسول محمد عليه السلام ــ التى تدعو إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وختم الرسالة الإلهية برسالة المصطفى محمد عليه صلوات الله وسلامه : لتجديد الدعوة وتذكير الناس بما فى رسالة الله فيما قبل المصطفى عليه السلام كانت تباشره الرسل السابقة فى الأجيال المختلفة ، جيلا بعد جيل . وهم عديدون : « **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك** » (٢٤) .. وعندما ختمت رسالة الله بالقرآن ، وبالمصطفى عليه السلام كان الوحى يطلب قيام هذه الجماعة فى قول الله تعالى : « **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** » .. لأن تذكير الناس برسالة الله وما جاء فيها من مبادىء من وقت لآخر : ضرورة بشرية تقتضيها طبيعة الإنسان نفسه ، طالما هو يعيش على هذه الدنيا فالإنسان بعد إيمانه أيضاً مشدود إلى هواه . والعاصم له من طغيان هواه عليه : هو تجديد شأن الدعوة فى نفسه .

وإذا كانت مهمة هذه الجماعة هى تذكير الناس بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ وهى مهمة رسالة أى رسول من قبل ــ فمن عوامل نجاح هذه الجماعة بعدها كل البعد عن تقبل أجر عليها ، كما كان يفعل الرسل صلوات الله عليهم جميعا . وقد وجه القرآن رسول الله

---

(٢٤) النساء : ١٦٤

محمدا عليه السلام إلى إعلان المدعوين لدين الله بأنه لا يقبل أجراً على دعوته أسوة بما فعله الرسل السابقون عليه ، في قوله تعالى :

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . اولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل لا اسألكم عليه اجراً ، ان هو (أى القــرآن) **الا ذكرى للعالمين »** (٢٥) .

ولعل من نجاح الدعوة : عدم الاحتراف بها ، والإخلاص فيها لوجه الله وحده ، وهذا وذاك هو الأسوة الحسنة في الرسل السابقين .

* * *

● التنبيه المستمر الى تلافى الانحرافات يحفظ على المجتمع تماسكه :

تطالب رسالة الله منذ أن جاء بها رسول إلى قومه بأن تكون هنــاك مجموعة في المجتمع تنبه إلى الأخطاء والانحرافات التي تقع فيه من حاكم ، أو من صاحب ولاية ، أو من آحاد الناس ، أو من عامتهم ، أو من أصحاب الجاه والنفوذ بالمال أو بالشرف بينهم .

وهذه المجمــوعة لا تؤلف حــزبا منها ، ولا يصــطنعها رجل ســياسة أو حكم . وإنما تلتقى على كلمة الحق ، والرأى المجرد عن الحزبية والهوى ، وعلى الإخلاص فيما تقول ، أو فيما تبدى من نصح لله وحده . وإذا ذكر الله وحده قصدت المصلحة العامة ، التي لا تؤثر فريقاً على فريق آخر من الناس فيما تصدره من نصيحة أو رأى .

وتعلق رسالة الله أهمية كبيرة على هذه المجموعة من أصحاب الرأى في المجتمع . إذ تسند إليها حفظ المجتمع من الضياع والسقوط .. كما تجعل من عوامل سقوط المجتمع خلوه من مثل هــذه النخبة . وهــذه النخبــة إذ تصون المجتمع تصونه بالرأى البعيد عن المصلحة الشخصية ، أو بعبــارة أخرى : البعيد عن الغرض السياسى وانتهازية المنفعة المادية ، ومنفعة الجاه والسلطة .

يقول الله تعــالى : **« فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون**

---

(٢٥) الانعام : ٨٩ ، ٩٠ .

عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن أنجينا منهم ، (أى لم يكن هنـــــاك فى المجتمعات البشرية السابقة التى أصابها الانحلال والظلم والطغيان ، وقضى عليها بالفناء بسبب ذلك مجموعة تنهى عن الفساد فى الأرض ، عـدا القـلة القليلة التى نجت من الفناء والدمار ، وهى الرســول وبعض من أتباعه . ولذا اســـتشرى الفســـــاد فى المجتمـع) واتبع الذين ظلموا ما اترفوا وكانوا مجرمين » (٢٦) .. (وكظاهرة من استشراء الفساد استرسل المترفون فى ترفهم . وهم فى ترفهم كانوا ظالمين لغيرهم لأنهـم رأوا فيما جمعــوه من وسائل الترف : مصلحتهم وحدهم ، غاضين النظر عن مصالح غيرهم . وهم فى استرسالهم فى الترف كانوا ممعنين فى الاعتداء على حقوق الآخرين معهم من أصحاب الحاجة . ولذا كانوا مجرمين فى حق مجتمعهم . وعن استشراء الفساد ، واسترسال المترفين فى ترفهم ، وإجرامهم فى حق الآخرين معهم كان هلاك مجتمعهم وسقوطه) .

وإذا كان هلاك المجتمع البشرى وسقوطه يعود إلى عدم وجود مجموعة من أفراده فيه تكشف عن وجه الحق والصواب ــ أى تباشر النقد الخالص ، أو ما يسمى بالنقد البناء ــ عند وقوع الأخطاء والانحرافات فى توجيهه أو فى سلوك الأفراد فيه .. فإن بقاءه بالتالى وبعده عن السقوط يرتبط بوجود هذه النخبة وممارستها وظيفة النصح وإبداء الرأى لحاكم فيه ، أو لطائفة أو بعض من طوائفه ، تحذرهم عند الخطأ وترشدهم إلى معالم الصواب فى السلوك والتوجيه معاً .

وهكذا : الشورى .. أو حرية الرأى .. أو الإخلاص فى النصح ضرورة من ضرورات وجود المجتمع نبهت إليها الرسالة الإلهية منذ وجودها . وحرية الرأى التى ترمى إليها هذه الرسالة هى بعده عن الحزبية ، وعدم تأثره بمصلحة شخصية .. هى قول الحق لذات الحق .. هى قوله لوجه الله .

وإذا كانت ديمقراطية الحكم فى النظم المعاصرة تدور فى إطار الحزبيـة السياسية : فإن ما تنصح به رسالة الله : أن يكون الرأى الذى يعلو صريحاً فى المجتمع للتحذير من خطأ أو انحراف ، وللإرشـــاد إلى طريق الصــواب

---

(٢٦) هود : ١١٦

ومعالمه : هو رأى يدور فى إطار الرسالة الإلهية وحدها ، تعطيه هذه الرسالة فى غير إكراه عليه ، وفى غير محاولة مغرضة لاستخلاصه من بعض نصوصها فرسالة الله إذا تركت وشأنها تملى على الإنسان ما يريده الله . وإذا حملها الإنسان على رأى مبيت لم يكن ما تعطيه هو ما لله ، وإنما هو ما للشيطان الذى سيطر على هوى الإنسان المكره .

* * *

● بقاء المجتمع فى استقامة أفراده :

إن رسالة الله فى كتابه العزيز تتضمن جملة من المبادىء التى تحكم المجتمع الإنسانى وفقاً لخصائص الطبيعة البشرية ، وهى بمثابة قوانين له تتمثل فيها إرادة الله . ولا راد لإرادة الله التى تعبر عنها هذه القوانين الاجتماعية ، وتقصها آيات القرآن الكريم :

نقرأ قوله تعالى فى سورة هود : ((**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم** (والقرى هى المجتمعات البشرية) **وأهلها مصلحون**)) (٢٧) .. نجد هنا فى هذه الآية ارتباطا وثيقاً بين بقاء المجتمع وعدم سقوطه أو تغييره من جانب .. ومباشرة أفراده لمنهج السلوك المستقيم من جانب آخر . وهذا الارتباط هو قانون اجتماعى مفاده : ضمان بقاء المجتمع .. أو ضمان استقراره وبعده عن القلاقل والاضطراب : بأداء كل فرد فيه ما يجب عليه ، وأخذه ما له من حق قبل الآخرين .

فاستقامة الأفراد فى المجتمع ، بأدائهم لواجباتهم ، وبأخذهم لحقوقهم : مقدمة ضرورية لبقاء المجتمع فى صفاء علاقاته وفى بعدهم عن الحقد وعن تدبير السوء بعضهم لبعض . والعدل الإلهى هو إذن فى بقائه . والله تعالى بعيد كل البعد عن مباشرته الظلم .

فالإصلاح الذى جعلته الآية شرطا لاستقرار المجتمع هو عدم مباشرة الفساد . والفساد هو الانحراف فى صوره المختلفة :

---

(٢٧) هود : ١١٧

١ ـ كالانحراف باستضعاف الضعفاء وأكل أموالهم من غير وجه مشروع ، كأكل أموال اليتامى أو النساء ، أو أجور العاملين ..

٢ ـ والانحراف بقبول الرشوة عن طريق الحكم لأكل أموال الناس بالباطل .

٣ ـ والانحراف بإمساك منفعة المال عن سد حاجة المحرومين وأصحاب الحاجة ، كمنع الزكاة والشح بالإنفاق فى سبيل المصلحة العامة .

٤ ـ والانحراف بالاعتداء على حرمات الآخرين فى أعراضهم بالزنا ، وفى أموالهم بالسرقة ، وفى نفوسهم بالقتل بغير حق .

٥ ـ والانحراف بتولية ذوى القرابة والصلة الوثيقة أمراً لا يحسنون أداءه .

٦ ـ والانحراف بعدم أداء الأمانة ممن أئتمن عليها . وهى أمانة العمل لمن أئتمن عليه .. وأمانة القضاء ممن ولى أمره .. وأمانة التعليم لمن أسند إليه التوجيه .. وأمانة النصح والمشورة من أهل الخبرة والتجربة ، كالطبيب مع مرضاه ، والداعى إلى الحق وإلى الله مع من يدعوهم لرسالته ، وكل ذى خبرة يتوقف على خبرته إحقاق الحق فى ذاته .

٧ ـ والانحراف بالطغيان بالمال ممن كان ذا قوة بماله .. وبالعصبية والقوة المادية ممن كان ذا تفوق فى قدرته بعصبيته وقوته المادية .

٨ ـ والانحراف بأية نعمة أخرى من نعم الله : كنعمة الصحة .. والعلم .. والجاه .. والسلطة .. والفكر .. والقلم ، فتسخر أى منها لترويج العبث والانحلال والضلال .

والمجتمع الذى يؤمن بالله ويكون أفراده من المصلحين هو المجتمع إذن المؤمن على مستقبله : لا يصيبه الخوف من داخله أو من خارجه ، وليس هناك ما يحزنه فلم يفرط واحد فيه فى أداء واجبه ، ولم يشعر واحد فيه بأنه حرم من حقه « **فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » (٢٨) ..

---

(٢٨) الانعام : ٤٨

ولذا كانت الدعامة الأولى عند تحـويل المجتمـع الذى مزقت المادية والجاهلية العلاقة بين أفراده ، إلى مجتمع تسود فيه الإنسانية هذه العلاقة ، هى : تقوى الله والابتعاد عن الطغاة الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون : **« فاتقوا الله واطيعون . ولا تطيعوا امر المسرفين . الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون »** (٢٩) .. كان ذلك نداء صالح إلى ثمود ، كى يعيش فقراؤها مع أثريائها فى وئام ومحبة ، وكى يســتقر مجتمعهــا فى غير تربص لزواله وتغييره ، اليوم أو غداً .

* * *

● **الشورى فى الاسلام ضرورة اجتماعية :**

طريق الإسلام إلى الإيمان به هو طريق الإقناع والمشيئة فيها ، وليس طـريق الإكــراه والإلـزام : **« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »** (٣٠) ..

وطريق المشيئة ــ فى نظره لذلك ــ هو طريق الحياة للإنسان فى علاقته مع غيره . لا يلزم بأمر ما . وإنما يلتزم طبقاً لما آمن ، ويؤمن به . أى أن الإنسان يلزم نفسه بما يؤمن به وليس غيره يلزمه به .

ومن هنـا كانت ممارسـته « الشــورى » صفة من صفات المؤمنين ، أى أنها جزءا من واقع حياتهـم : يمارسـها المؤمنـون فى الأسرة .. وفى مجتمع القـرية .. وفى مجتمع المدينـة .. وفى الأمـة الإسـلامية كلهـا . ويمارسها الجار مع جاره .. والأقرباء مع بعضـهم بعضاً . ويمارسها صاحب الولاية على من يولى عليهم .. وهؤلاء مع من ولى أمرهم ، يقول الله تعالى : **« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهـم يتوكلون . والذين يجتنبون كبـائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين اسـتجابوا لربهم واقاموا الصـلاة وامرهم شـورى بينهـم ومما رزقنـاهم ينفقـون . والذين اذا اصـابهم البغى هم ينتصرون »** (٣١) ..

فقرنت هذه الآيات ممارسة الشورى بإقامة الصلاة ، والإنفاق لأصحاب

---

(٢٩) الشعراء : ١٥٠ ــ ١٥٢
(٣٠) الكهف : ٢٩
(٣١) الشورى : ٣٦ ــ ٣٩

الحاجة من أموال الموسرين ، مما يدل على أهميتها فى حياة المؤمنين . كأهمية الصلاة فى صفاء النفس ، والإنفاق فى التكافل .

ورب الأسرة لذلك ليس مستبداً فيها . وإنما أمر الأسرة بينه وبين زوجته وأولاده . وقوامة الرجل على المرأة فيما جاء فى قول الله تعالى : **« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (٣٢)** .. هى قوامة مسئولية فى المحافظة على الأسرة ، ووقايتها من الأذى ، ومن الحرمان .. هى قوامة تقوم على الشورى أولاً بين أفراد الأسرة . أى تأتى مباشرتها بعد إتمام الشورى معهم .

وولى الأمر ليس متحكماً فى ولايته .. وإنما شأن ولايته على من يولى عليهم شأن الأمين فى مشورتهم للمصلحة العامة . وقد وجه القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أغرت دنيا الغنائم والأسلاب ، بعض من خرجوا معه فى غزوة « أحد » فانصرفوا إلى جمعها ، تاركين الرسول وقلة معه فى مواجهة المشركين الماديين ، وكانت هزيمة المؤمنين لذلك فى هذه الغزوة .. وجهه إلى السلوك معهم مسلك اللين ، إلى العفو عنهم واستغفار الله لهم ، ثم إلى مشورتهم مع ذلك وأخذ رأيهم فيما يهم مجتمع المؤمنين إذ ذاك ، وبالأخص فى شأن القتال ووقاية الدعوة الإسلامية عن طريقه فيقول :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (٣٣) ..

فمشاورة الرسول عليه السلام لهؤلاء الذين تخلوا عنه وقت المحنة يدل على أهمية الشورى فى حياة المجتمع الإسلامى ، وعلى أن بقاءه متماسكا يعود فى الأغلب إلى ممارسة هذه الصفة فى المجالات المختلفة لحياة الإنسان مع الآخرين معه .

ومن هنا لا يعرف الإسلام ثورة ولا انقلابا على الوالى الذى يمارس الشورى مع من ولى عليهم . إذ بسبب الشورى لا تكون هناك اتجاهات مضادة فى الظلام ضد ولى الأمر . فالنفوس تصفى رواسب القلق أو الشكوك فيها عن طريق إبداء الرأى وإعلانه ، عند ممارسة الشورى .

---

(٣٢) النساء : ٣٤ (٣٣) آل عمران : ١٥٩

ومن هنا أيضاً كان أمر القرآن بالطاعة لأولى الأمر ممن يولون عليهم من المؤمنين ، على أن يسلكوا جميعاً بالخلاف فى الرأى بين الفريقين مسلك الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : **« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول** (أى إلى كتاب الله وسنة الرسول القولية والعملية) **ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ،** (أى إن كنتم بعيدين عن الاتجاه المادى فى حياتكم وهو ذلك الاتجاه الذى يدعو إلى المصلحية والانتهازية والمنفعية) **ذلك خير وأحسن تأويلا »** (٣٤) .. (والرجوع فى ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله فى شأن الخلاف فى الرأى بين أولى الأمر ومن يولون عليهم هو الطريق الأمثل والطريق الأسلم والخير لتماسك الأمة) .

وهذه الآية التى جاءت بالأمر بالطاعة وتحريم مباشرة الانقلاب كوسيلة من وسائل فض الخلاف والنزاع .. جاءت بعد آية سبقتها تطلب من المؤمنين جميعاً أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل إن هم باشروا الحكم ، فتقول : **« ان الله يامركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »** (٣٥) .. ومن الأمانات التى يجب أن تؤدى إلى أهلها أمانة الشورى يؤديها الوالى ، ويؤديها معه من يولى عليهم .

.. أما أسلوب الشورى أو طريقة تنظيمها فأمر متروك للمؤمنين فى كل عصر وجيل . فقد تكون الصحافة .. وقد تكون الندوات .. وقد تكون مجالس أهل الخبرة والرأى ، من الأساليب التى تعبر عن الشورى . وعلى أية حال يجب أن تدور الشورى — فى نظر الإسلام — فى إطار كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام . أى فى إطار ما جاء فيها من مبادىء وتوجيه . **« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »** (٣٦) ..

وكتاب الله — وهو سند الرسول ومعجزته فى رسالته — جاء بهداية

---

(٣٤) النساء : ٥٩
(٣٥) النساء : ٥٨
(٣٦) النساء : ٥٩

البشرية ، فى غير تحيز لجنس من البشر ، أو لقبيلة ، أو لطائفة ، أو لمجموعة من الناس دون أخرى : **« ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٣٧) ..**

أما الآخرون الماديون والوثنيون فهم لا يستطيعون أن يروا فيه الهداية إذ هم فى ضلال يعمهون : **« ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » (٣٨) ..**

وصدق الله العظيم وصلوات الله وسلامه على رسوله الأمى الأمين محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء .

* * *

● حكمة التوجيه قد تقضى بالوعد بالنصر مسبقاً :

يقول الله سبحانه فى سورة الفتح : **« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » (*)** ويقصد فتح مكة فى السنة العاشرة من الهجرة . ثم يقول فيها كذلك : **« وينصرك الله نصراً عزيزاً » (*)** ويقصد أيضاً بالنصر هنا النصر فى فتح مكة . مع أن الوحى بهذا القول وبذاك كان فى السنة الثامنة من الهجرة ، أى بعد صلح الحديبية . والقرآن إذن أخبر بفتح مكة .. وبنصر المؤمنين فيه نصراً فاصلا قبل وقوعه بسنتين . ووعد الله لا شك نافذ وواقع . ولكن لماذا كان الوعد بالفتح ، وبالنصر فيه قبل أن يقع ؟ أكانت هناك ضرورة نفسية أو اجتماعية تدعو إلى إعلان الوعد قبل زمنه ؟ .. أكان هناك سبب يقضى بأن الحكمة فى توجيه المجتمع إذ ذاك هى فى هذا الإعلان المبكر ؟ . سورة الفتح نفسها تجيب عن هذا السؤال فى قول الله تعالى ــ بعد إعلان الفتح والنصر فيه ــ : **« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » (٣٩) ..** أى أن هذا الوعد بالفتح وبالنصر فيه كان لغاية الحفاظ على إيمان المؤمنين وقتذاك ولتأكيده فى زيادة قوته .

---

(٣٧) البقرة : ٢ ــ ٥
(٣٨) البقرة : ٦ ، ٧
(*) الفتح : ١ ، ٣
(٣٩) الفتح : ٤

فمعروف أن أكثر المؤمنين لم يكن راضياً عن صلح الحديبية ، وبالأخص الشبان بينهم . معظمهم لم يكن راضياً عن بعض الشروط التى اشترطها المشركون وبالأخص عدم موافقتهم على إباحة الحج للمؤمنين فى هذا الوقت الذى تم فيه الصلح . إذ أن المؤمنين لم تكتمل لهم مثل القوة التى كانوا عليها الآن ، ولم يخلص إيمانهم بالله وبالدعوة إلى رسالته مثل ما خلص الآن فى الحديبية ، فعددهم ، ونوع إيمانهم بدعوتهم كانا كفيلين بنصرهم على الوثنيين الماديين بمكة لو وقع قتال بين الطرفين . فقبول الرسول عليه السلام ـ كقائد سياسى وعسكرى ـ لصلح الحديبية أحدث هزة نفسية بين المؤمنين ، وأحزن الكثير منهم . ويقول القرآن فى وصف المؤمنين إذ ذاك : **« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (٤٠) .**

ولكن يعود المؤمنون إلى وضعهم النفسى الطبيعى وإلى تماسكهم فى سبيل الدعوة وإلى اطمئنانهم إلى بلوغ غايتهم وهى النصر على أعدائهم من المشركين الماديين ، اليوم أو غداً ، كان وعد الله بالنصر فى فتح مكة ودخولها ، إيذاناً بنهاية عهد المادية والطغيان وقيام المستوى الإنسانى فى المجتمع البشرى وهو ذلك المستوى الذى يحدثه ذلك التحول من الجاهلية إلى الإسلام بفضل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته عليهم رضوان الله .

وإذن بمقياس الإنسان : من الحكمة فى توجيه المجتمع على عهد الرسول عليه السلام : أن أوحى الله إليه بأن يعلن المؤمنين مبكراً ، بنصر الله لهم عند فتح مكة كما كانوا يريدون عندما أقاموا بالحديبية قبل إتمام الصلح مع المشركين . ومعنى هذا التوجيه أن الهدف الذى كان سيصل إليه المؤمنين عند بلوغهم الحديبية سيصلون إليه غداً ، وهم أكثر اطمئنانا لبلوغه ، وأكثر إيمانا بدعوتهم وبرسالتهم : **« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » ..**

ووعد الله بنصر المؤمنين فى فتح مكة لم يصادف فراغاً فى قلوب

---

(٤٠) الفتح : ١٨

المؤمنين ، وإنما صادف إيماناً قوياً فيها ، وصادف أعداداً كبيرة لم تتجمع من قبل ، ومن جانب آخر صادف بين أعدائهم ضعفاً مهينا ، نتيجة خوفهم من المؤمنين على حياتهم وعلى أرزاقهم فى تجارتهم إلى الشام ومنه ، ونتيجة تفككهم فيما يجب أن يكون لهم من موقف لإبعاد هذا الخوف عنهم . فالوعد بالنصر كانت له مقدماته . وهنا كان واضحاً : أن يكون إعلانه للتطمين وإبعاد القلق النفسى على فوات فرصة كان يعتقد أنها الفرصة الأخيرة أو الوحيدة ، للقضاء على الأعداء الماديين .

ومن يحاكى سياسة الرسول عليه السلام فى المجتمع عليه أن يتأكد من الجو النفسى الاجتماعى الذى يقضى بتوجيه معين يتناسب معه . إذ ليس من الحكمة فى شىء أن تكثر الوعود مقدماً من غير أن يكون هناك ما يشير إلى وقوعها ولو من بعيد .

* * *

● النفاق .. والقيادة الرشيدة للمجتمع :

فى بداية تكوين المجتمع الإسلامى بالمدينة لعب النفاق دوراً كبيراً فى هزيمة المسلمين فى غزوة « أحد » وعرف الرسول عليه السلام والمؤمنون به صدقا بأمر المنافقين فى هذه الهزيمة ، وغضب وغضب معه المؤمنون من هؤلاء المنافقين ، فجاء الوحى بتوجيه الرسول عليه السلام : بأن يعاملهم مع آثارهم السلبية فى رفق ، وبألا يعزلهم عن الناس فى المجتمع . لأن المصلحة العليا للمجتمع تدعو الآن إلى هذا النمط من التساهل ، وعدم التشدد فى سياسته الداخلية . وهذه المصلحة هى بقاؤه غير ممزق وغير متخاصم فى مواجهة أعدائه ، ونزل قوله تعالى : **« فبما رحمة من الله لنت لهم ،** (أى تأسى برحمة الله وكن لين الجانب معهم) **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ،** (إذ لو عاملتهم الآن فى شدة حسبما يستحقون لانفرط عقد المجتمع) **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر »** (٤١) ..

وتوجيه القرآن للرسول هنا بالعفو عن المنافقين ، وطلبه من الله أن يغفر

---

(٤١) آل عمران : ١٥٩

لهم ، ويأخذ هو رأيهم فى أحوال المسلمين مستقبلا ، وبالأخص عند قتال الأعداء مرة أخرى ، لأن ضعف المجتمع الإسلامى إذ ذاك لا يحتمل عزل بعض أعضائه منه وفصلهم عنه . والرسول عليه السلام بالعفو عن المنافقين هــذه المرة لا يريد أن يقر النفاق كطريق للسلوك فى الحيــاة ، ولكنه فقط يغض الطرف عنه لحين ما .

.. ولذا حدث فيما بعد ، عندما قوى مجتمع الرسول عليه السلام من جانب ، وظهرت سلبية النفاق على مستقبل المجتمع من جانب آخر طالب القرآن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كقائد : ألا يطيع المنافقين فيــما يريدون أو يشيرون به عليه ، وأن يلتــزم الوحى وحــده وما يأتى به من توجيه ، من وقت لآخــر : « **يا أيهــا النبى اتق الله ولا تطــع الــكافرين والمنافقين ، أن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى اليك من ربك ، أن الله كان بما تعملون خبيراً** » (٤٢) ..

فبعد أن طلب منه عليه السلام أولا : أن يشاورهم فى الأمر عندما كان المجتمع ضعيفاً عاد ووجهه الآن ــ بعد قوة المجتمع ــ إلى عدم طاعتهم فيما يقولون ، وسوى بينهم وبين المعارضين الصرحاء لهداية الله ، فى عدم إخلاصهم لدين الله ، وتبييتهم السوء له ولصاحب الدعوة عليه السلام .

وعلل القرآن عدم الطاعة لرأى المنافقين بأن الإنسان يستحيل عليه أن يؤمن بالشىء وضده فى وقت واحــد . فإما الإيمــان بالإســلام وبالتالى الإخــلاص له ، وإما عــدم الإيمــان به وبالتــالى تبييت الســوء له : « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** » (٤٣) .. والقلب مصدر الإيمان ، ومعنى ألا يكون للإنسان قلبان : ألا يكون لديه إيمانان بأمرين متناقضين فى وقت واحد . ولذلك : فادعاء المنافقين الإيمان ادعاء كاذب فهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

وهكذا : الحكمة فى القيادة الرشيدة للمجتمع : أن تعرف أمر النفــاق والمنافقين فى المجتمع ، وتغفل أمرهم أولا أو تتجاهله إلى وقت لا يهتز فيه المجتمع بأخذ التدابير للوقاية منهم : إما بإبعادهم عن مواطن الرأى فيــه ،

---

(٤٢) الاحزاب : ١ ، ٢ (٤٣) الاحزاب : ٤

أو بإعلان خروجهم عن مبادىء المجتمع إذا استفحل ضررهم ، على نحو ما أعلن القرآن ، ذلك فى آخر سورة نزلت ، وهى سورة التوبة فى قول الله تعالى :

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٤٤) ..

وما يعلنه القرآن هنا من توجيه بعد توجيه بشأن معاملة النفاق والمنافقين فى المجتمع إنما هو حسب مراحل المجتمع فى الضعف والقوة . وليس من بين هذه التوجيهات ما يلغى بعضها الآخر .

* * *

● المنافقون يكشفون عن أنفسهم :

هذا الفريق الثالث بين المؤمنين والكافرين ، وهو فريق المنافقين وهو موجود بكل مجتمع إنسانى ، ومن أخطر الجماعات فى المجتمع ، على قيمه ومبادئه ، وعلى بنائه وتماسكه . ويسمى القرآن الكريم هذا الفريق « بمرضى القلوب » . لأن عيهم وخطرهم آت من الحقد الذى تمتلىء به قلوبهم على المؤمنين فى بقائهم أعزاء . وهم قد أعلنوا الإيمان ليبثوا فقط تحت ظل إعلانهم الإيمان : ما يبيتوه فى نفوسهم من مكايد الفرقة والشقاق ، وعوامل التثبيط والتخاذل والاستسلام بين المؤمنين ، أو ليحصلوا لأنفسهم منافع ذاتيه لا يمكن أن يحصلوا عليها إلا إذا أبرزوا عنصر الإيمان فى تحركاتهم .

ويحاولون فى كل لحظة إخفاء حقيقة نفوسهم ، بالأيمان الكاذبة : على أنهم أوفياء للإيمان ، وجادون فى سبيله : **« يحلفون بالله لكم ليرضوكم » (٤٥)** ولكن رغم حذرهم فى تخفيهم فإن أسلوبهم فى الحديث مع المؤمنين ينم فى وضوح عن مرض النفاق فى قلوبهم : **« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم »** (أى هل يظن مرضى القلوب بالنفاق أن أحقادهم على الإيمان والمؤمنين ، سوف لا تظهر لحظة من اللحظات ؟ . إنهم مخطئون فى هذا الظن) **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ،**

---

(٤٤) التوبة : ٨٤
(٤٥) التوبة : ٦٢

(فأمارات نفاقهم قد تبدو للعيان يعرفها من يشاهدها : يعرفها الرسول ، وكل مباشر لقيادة مجتمعه) **ولتعرفنهم فى لحن القول »** (٤٦) (وأخص الأمارات على نفاقهم أسلوبهم فى الحديث وميلهم به إلى نحو يشير من طرف خفى : إما إلى تدبير المكيدة ، أو إلى اقتناص مصلحة خاصة) .

وكذلك حركة نظراتهم تنبىء من يتطلع إليها عن حرجهم الشديد ، إذا ما وضعوا فعلا أمام اختبار جدى يكشف عن صدق الإيمان أو كذبه :

« **فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت** » (٤٧) .. فقتال الأعداء عندما يطلب من المؤمنين يسعى إليه المؤمن حقا لأنه على وعد مع الله سبحانه بالجزاء الأوفى : « **ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** » (٤٨) وأما غير الصادق فى إيمانه ــ وهو المنافق ــ فإنه يحرج أشد الحرج بهذا الطلب لأنه يخشى على حياته أولا ، وهو حريص على الحياة أكثر من حرصه على أى شىء آخر . ولأنه ثانيا على علاقة خفية بأعداء المؤمنين : يشاركهم كره المؤمنين ، ومحاولة الإيقاع والتربص بهم ، ثم هو على وعد معهم فى أن ينفذ لهم بعض مخططاتهم : « **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله** (وهم الكافرون) **سنطيعكم فى بعض الأمر** ، (وهو ما يعود بالوبال على المؤمنين) **والله يعلم أسرارهم** » (٤٩) ..

والقيادة الرشيدة للمجتمع هى التى لا تغمض الطرف فترة قصيرة عن متابعة كشف النفاق والمنافقين . فطبائعهم مرنة ، ومواقفهم مترددة ، وإلحاحهم فى التخفى لا يدانيه إلا محاولتهم اقتناص الفرصة لمنافعهم الشخصية : يعلنون ولاءهم للإيمان والمجتمع وهم أصحاب ولاء لإيمان آخر فى مجتمع آخر ، ويستنكرون ما يقع من اعتداء أو عدوان على المجتمع الذى يعيشون فيه وهم مشاركون فى تدبيره . يستنصرون بالأجنبى فى خفاء ، ويؤكدون فى الوقت نفسه : الانتماء إلى المجتمع .

---

(٤٦) محمد : ٢٩ ، ٣٠
(٤٧) محمد : ٢٠
(٤٨) آل عمران : ١٥٧
(٤٩) محمد : ٢٦

وإذا كان القرآن قد وضع هنا أمام القيادة الرشيدة فى المجتمع بعض الأمارات الظاهرة للتعرف على النفاق والمنافقين فإن حاسة هذه القيادة يمكن أن تدرك الكثير من خصائص هذا المرض الاجتماعى ، وتتخـذ أسـلوب العلاج أو الوقاية منه ، قبل أن يتعاظم خطره ، على نحو ما يرشد كتاب الله فى معاملة المنافقين .

* * *